الرواية النسائية في رؤية جورج طرابيشي السيكولوجية

نوال السعداوي أنموذجا

مسعودة مرزوقي

جامعة سوق أهراس

Résume

Cette étude porte sur la dimension psychologique du roman féminin à travers l' œuvre romanesque de Nawal Saadaoui, vu par le critique George Tarabichi . Il s'agit d' études a grande valeur sur les plans critique et épistémologique. En s'appuyant sur les outils de la psychanalyse, Tarabichi entreprend une introspection

Psychologique de l'être humain a travers l'analyse des personnages ,dans le but de comprendre la vision du monde de l'œuvre romanesque.

الملخّص:

تتناول هذه الدراسة البعد السيكولوجي للرواية النسائية ,وبالضبط عند رائدة هذا المجال الكاتبة نوال السعداوي ,من منظور الناقد جورج طرابيشي. إذ قدم مقاربات نفسية لأكثر من خمس روايات في كتابين من ضمن تسعة كتب نقدية، على مدار نصف قرن من الزمن. وكانت تلك الدراسات بمثابة نوافذ نقدية ومعرفية ذات أهمية خاصة. حاول فيها الناقد – من خلال آليات التحليل النفسي –الغوص في أغوار النفس البشرية ممثلة في الشخصيات الروائية , بغية الوصول إلى رؤية العالم المتحكمة في الخطاب الروائي للكاتبة.

توطئة :

حظيت نوال السعداوي*بقسط وافر من الدرس النقدي العربي، من وجهات مختلفة الرؤى؛ تاريخية واجتماعية، ونفسية، وهي الدراسات التي جاءت انعكاسا لمضمون أدبها. فنوال السعداوي كاتبة بارزة، متحررة؛ تكتب لتوصل رؤيتها للعالم، وهي تمثل بنصوصها الروائية معاناة المرأة المقهورة، فلا يسعنا ونحن نقرأ كتاباتها إلا أن نتعاطف مع بطلات رواياتها. وأبرز من درس أعمال هذه الروائية جورج طرابيشي، إذ جاءت نظرته لها ولأدبها مختلفة، وذلك من خلال خمس روايات درسها في كتابين نقديين، درس في الأول (الأدب من الداخل) (1978) رواية (امرأتان في امرأة) [1] ، وأربع روايات [2] أخرى درسها ووضع لها كتابا نقديا خاصا بها نشره تحت عنوان (أنثى ضد الأنوثة[3] : دراسة في أدب نوال السعداوي على ضوء التحليل النفسي) (1984).

إنه أول كتاب يوضح الرؤية الناضجة للمنهج عند طرابيشي؛ مما يجعل هذه الدراسات لروايات نوال السعداوي: (امرأتان في امرأة) و(مذكرات طبيبة) و(امرأة عند نقطة الصفر) وأخيرا رواية (الغائب)، نوافذ أدبية ونقدية في آن واحد، على الحوار النقدي الأدبي العربي الممتد على مساحة جغرافية وزمنية واسعة. وسنتطرق في هذا المقال لدراسة روايتين من ضمن الكم الكبير الذي درسه جورج طرابيشي من روايات نوال السعداوي، وهما رواية (امرأتان في امرأة) في كتاب (الأدب من الداخل) و(مذكرا ت طبيبة) في كتاب (أنثى ضد الأنوثة).

1)- كتاب الأدب من الداخل (1978):

ألف جورج طرابيشي كتاب (الأدب من الداخل) بغية جمع عددا من الدراسات التي كتبها سابقا ونشرت في مجلتي الآداب، ودراسات أدبية، في السنوات الست الأولى من القرن الحالي. وقد اختار طرابيشي من بين سائر ما نشر له في هاتين المجلتين هذه المقالات التي رآها « أقرب إلى الدراسات منها إلى المقال.. ولن يكون من الصعب على القارئ أن يلاحظ على صعيد مضمون هذه الدراسات أن ثمة اهتماما مركزيا بين معظمها» [4] ، إذ يجمع بينها اهتمام الناقد بصورة المرأة في مجتمع أبوي متأخر كالمجتمع العربي، في أعمال كل من نوال السعداوي، وسميرة عزام، وعبد الرحمن منيف، ونجيب محفوظ، وتوفيق الحكيم، وعبد السلام العجيلي، وألبرتو مورافيا.

وسنحاول الاقتراب من قراءته لرواية نوال السعداوي (امرأتان في امرأة)، وقد كانت الدراسة الأولى في هذا الكتاب بعنوان (أنثى نوال السعداوي وأسطورة التفرد)، وفيها تطرق الناقد إلى احتكار الرجال لفن الرواية كما هو الشأن في العديد من مظاهر الإنسانية «الموسومة باسم العنصرية الجنسية المعادية للمرأة»[5] . فقد فرق طرابيشي في بداية الدراسة بين رواية الرجل ورواية المرأة. فالرجل يعيد بناء العالم في روايته، أما المرأة فالرواية عندها بؤرة أحاسيس؛ لأنها تكتبها بقلبها. أما الرجل فيكتب بلغة العقل، والمرأة ليست مرآة عاكسة للعالم، بل تختلق عالما خاصا بها في روايتها؛ فيصير العالم منظورا بعد أن كان ناظرا.

لقد رأى طرابيشي بأن التسليم بوجود رواية نسائية متميزة ليس معناه كل رواية تكتبها امرأة فحسب«بل هي أيضا تلك التي تكتبها امرأة بطريقة مغايرة للطريقة التي يكتبها بها الرجل»[6] . ثم ينتقد رواية (امرأتان في امرأة) بأنها لم تفلح في أن تكون رواية؛ لأنها تفتقر إلى قوة البناء الدرامي، وليس لأن كاتبتها امرأة. لكنه يعود، بعد ذلك، ليدافع عنها بأنها تمتلك دفقا هائلاً من الأحاسيس الثرية التي تغني عن قوة البناء الدرامي في الرواية التي أورثوها إياها باعتبارها فنا رجاليا.

لقد ظلت المرأة إلى زمن قريب موضوعا يكتب عنه الرجال؛ يقلبونه على أوجه كثيرة؛ ومنهم من كان يتباهى برسوخ قلمه وعلو كعبه ورباطة جأشه في مخاطبة النساء وسبر أغوار الأنثى.فلم يكن لهذه الأخيرة الحق في أن تتحدث باسم أحاسيسها ومشاعرها، أو تعبر عن مكنونات هذه الذات التي ظلت تشكو التهميش والضياع والاستغلال حتى من أقرب الناس إليها رحما ومودة.

وفي رواية (امرأتان في امرأة)، ينتهج طرابيشي منهج التحليل النفسي للشخصية البطلة (بهية). فهي مريضة نموذجية في عيادة الناقد كما هي في عيادة المؤلفة، فيجد أنها تُعاني رهاب القطيع، باعتباره طريقاً إلى النخبوية والتفرد، لا الانسحاق الطبقي، وهي بهذا تبحث عن التفرد؛ « والتفرد عبء، مخاطرة، وكثيرا ما كان يراود بهية شاهين هاجس الهرب من نفسها، من حقيقتها، من تفردها لتحتمي من تلك القوة الخارقة للطبيعة...«[7] ؛ كما سبق وأن أشرنا. ومن هنا تضع

(بهية) لنفسها حياة بدايتها ونهايتها بين التميز (التفرد) عن قطيع البنات والطالبات (النساء ككل)؛ باحثة عن حريتها المفقودة، وأصالتها المسلوبة والقطيعة مع كل ما يجعلها تسير في ركاب الآخرين. وهو ضرب من الشذوذ وليس تفرداً.: «فمن ليس له هم غير أن يسلك بعكس سلوك الآخرين لا يدل على تفرد، وإنما فقط على شذوذ»[8] كما يقول الناقد .

إن شكل التفرد لدى (بهية) ليس فقط في الانزواء والهروب من كل سلوك سلكه الآخرون، بل تعداه إلى الرغبة في القتل والانتحار، حيث يرى الناقد بأن التفرد درب آلام، درب شهادة. فعشقها لهذا الألم هو رغبتها في الالتحام بجسد الكون، الأرض الأم، متأثر بصدمة الولادة (صدمة أوتورانك). فهي تعاني رهاب الانفصال، وتختزن في لا شعورها عقدة أوديب **جرّاء تأثير المجتمع الأبوي، الشيء الذي كان يضطرها أحيانًا للعودة إلى مرحلة ما قبل الأنا، وهو ما يعرف بالنكوص***. لكنها راحت تُحاول التسامي؛ عن طريق الاشتراك في العمل السياسي الذي تظنه خلاصا لها من هاجس التبعية الدائمة للقطيع ورغبتها في التفرد والتميز. وتطالعنا (بهية) باعتبارها فريسة مجتمع ذكوري أراد لها أن تكون سجينة البوتقة التي رسمها لها. وبنظرته العدائية لها يقف وراء شتاتها وضياعها بين محاولة الهروب من القطيع والتفرد ولو بالانتحار والرغبة في القتل.

لقد عني جورج طرابيشي بالدراسة النفسية للأدب من الداخل في كتابه بالوقوف عند علائق الشخصيات الفنية وبنياتها النفسية والداخلية، بعيدا عن علاقتها بالمبدع وبنيته النفسية والاجتماعية. لكنه وقع في خلل اصطلاحي؛ إذْ ربط في كتابه هذا بين نفسية الشخصيات الفنية والمحيط الخارجي، والمبدع؛ كما فعل مع نوال السعداوي، إذ ربط بين بطلتها (بهية) وحبها للتفرّد والخروج عن القطيع بشخصية المؤلفة (نوال) التي تماهت مع بطلتها وانبهرت بها. وبالعودة إلى سيرة الكاتبة، نجدها تعيد في هذه القصّة سيرة حياتها انطلاقا من تغيير بعض الأحداث. وهكذا يبتعد طرابيشي عن مفهوم الداخل؛ لأنه استعان بما هو خارج عن النص الأدبي مثل السيرة الذاتية والحياة النفسية للمبدع؛ لتفسير ما هو داخل النص (تحليل الشخصيات الفنية).

لقد استعان الباحث بالمنهج الاجتماعي في تحليله شخصية بطلة السعداوي، إذ إن منهج التحليل النفسي لم ينجح مستقلا في كشف أغوار ومكنونات (هية). فالناقد جعل المنهج السوسيولوجي في خدمة السيكولوجيا. والمنهج الاجتماعي ضروري ومناسب لاكتشاف المشكلات النفسية التي تعانيها الشخصيات الفنية خاصة بالاهتمام بدراسة البنية الاجتماعية داخل النص الأدبي، وأثر ذلك في نمو الأمراض والعقد النفسية، ومعاناة المرأة من المجتمع الذكوري وموقف المجتمع منها.

2)- كتاب أنثى ضد الأنوثة 1984:

إن كتاب (أنثى ضد الأنوثة) هو أول كتاب لجورج طرابيشي تَرِدُ فيه كلمتا التحليل النفسي في عنوانه بخلاف بقية كتبه، وهذا إعلان صريح بتبني الاتجاه النفسي خالصا في صورته المستقلة .والتحليل النفسي في تعريف فرويد هو «الوقوف على علاج الشخصيات من العقد النفسية ومكبوتاتها، وعصاباتها، وإخراجها من حيّز اللاشعور إلى حيّز الشعور، ومعرفة أسباب هذه العقد عبر التداعي الحر والتأويل. وقد طوّرت نظرية التداعي الحر بإضافة موضوعات الكبت، والمقاومة، وصوّر الحياة الجنسية، وتأويل الأحلام، والتوصل بها إلى معرفة اللاشعور»[9]. مما يعني أن مرادف « التحليل النفسي عند فرويد هو تفسير الأعصبة، ببيان الدور الذي يلعبه الكبت، والدوافع الغريزية الجنسية،و اللاشعور في تشكلها»[10]. وهذا بالفعل ما قاد جورج طرابيشي إلى إضافة مركب (التحليل النفسي) إلى عنوان الكتاب؛ لأن غرضه تحليل عُقد ومكبوتات الشخصيات الفنية في روايات نوال السعداوي، والتوصّل في نهاية تحليله إلى إطلاق حكم حول المؤلفة بأنها مصابة أيضا بعقدة الدونية الأنثوية، وهذا ما يفسر أن جورج طرابيشي سلك طريق فرويد في تحليله.

لقد جاء هذا الكتاب في المرحلة الثانية من المراحل النقدية في حياة جورج طرابيشي التي سعى فيها إلى تأصيل منهج نفسي مستقل عن المناهج الأخرى، لكنه بتأليفه هذا الكتاب، نجده قد أسس لمشروع طموح يلخص تجربته في ثلاث مراحل « تبدأ بكتابات السيرة الذاتية، تليها كتابات

تشترك في المضمون، ثم ينتقل لمعالجة الرواية النسائية»[11] . كما جاء هذا الكتاب تلبية لتلك الرغبة التي ضمنها جمع جورج طرابيشي روايات نوال السعداوي (امرأة عند نقطة الصفر) و(مذكرات طبيبة)، و(امرأتان في امرأة) ورواية (الغائب)؛ لأجل التحليل النقدي الإيديولوجي من منطلق التحليل النفسي. لكنها كلها تشترك في موضوع واحد تقريباً؛ هو السيرة الذاتية.

كما اهتم طرابيشي في هذا الكتاب بتحليل الشخصيات الفنية تحليلاً نفسيًا، حيث يبدأ بروايات السيرة الذاتية للكاتبة. فالدراسة الثانية في هذا الكتاب اهتمت بموضوع السيرة الذاتية للروائية نفسها (مذكرات طبيبة)، لهذا وجدناها تختلف عن باقي روايات السعداوي؛ لأنها « سرد سيري صريح، صادر في أواخر الستينات بالقاهرة ضمن سلسلة أقرأ عن تجربة السعداوي الشخصية في رفض الأنوثة طبيعيا، و ليس اجتماعيا»[12]. ولعل هذا ما جعلها تُعاني صراعًا مع القدر، لا مع الواقع الاجتماعي الذي صنع الفروق بين الجنسين.

وحسب رأي فرويد، فنوال السعداوي تُعاني من عقدة النقص إزاء خلقها كأنثى؛ مما جعلها تعاني عقدة الخصاء، لكن الأمر ليس بهذه الصورة عند الناقد؛ إذ المصطلح، في رأيه، غير دقيق. فنوال السعداوي أنثى؛ لذلك فهي تعاني "وهم الخصاء". وهذه الرواية محكومة بإيقاعين اثنين: الافتتان بسر الحياة، والافتتان بسر الموت. فنعت الصراع بأنه بيولوجي أفاد الناقد في معادلة الموت/ الحياة أيضا. فرفض البطلة برأيه لأنوثتها، هو أثبات لرفضها الاتحاد مع الأخر؛ وبذلك يترتب أنها رافضة للحياة «فحب الحياة قائم على أساس حب الأنوثة أو الواقعة البيولوجية، أما حب الموت فهو واقعة سيكولوجية»[13] ، والصراع بينهما هو محور صراع البطلة في الرواية؛ كما يحسم ذلك الباحث. فهذه المعادلات في الرواية تؤكدها طبيعة الأحداث.

من هنا نجد أن « أنثى (مذكرات طبيبة)، الرافضة حتى الموت قدرها التشريحي، تبدو في الواقع رافضة لا للأنوثة وحدها، بل لدينامية الحياة بالذات ولدورتها الثلاثية؛ فهي لا تريد اتحادا، ولا تولدا، ولا تكاثرا..» [14]. هي لا تريد اتحادا؛ لأنها تكره الرجل، وهي أيضا «لا تريد تولدا؛ فهي تكره الأمومة.. من حيث إنها وظيفة لصنع الحياة.» [15] ؛ بل وتضيف بطلة الرواية وتعلق

على كرهها للأمومة وعدم فائدة وجودها في هذه الحياة وعن أمومة أمها فتقول: « أي فضل لها لا في أنها ولدتني؟ كانت تمارس حياتها الطبيعية كأي امرأة ثم جئت أنا بغير إرادتها.. جئت دون أن تعرفني.. ودون أن تختارني.. ودون أن اختارها.. لقد فرضت عليها ابنة وهي فرضت علي أما.. أ يمكن لإنسان أن يحب مخلوقا فرض عليه؟ وإذا كانت أمي تحبني رغما عنها بغريزتها، فأي فضل لها في هذا الحب؟ وهل هي ترتفع كثيرا عن القطة التي تحب أولادها حينا وتأكلهم حينا أخر؟»[16] .

وتعود من حين لآخر إلى تشويه صورة الأمومة لتعبر عن مدى كرهها لها وبالتالي كرهها الأبدي للحياة؛ فتقول في نفسها وتوجه الخطاب لسائر النساء عن أمومتهن: «هل يمكن لامرأة لها مثل علمك وذكائك أن تنفق حياتها في إرضاع الأطفال مثل النساء الجاهلات، بل مثل القطط والكلاب؟..»[17] . أما عن رفضها للتكاثر، فهو ناتج عن كرهها للمجتمع، وكرهها له لأنه كبير وبه الملايين من البشر فحسبها، المجتمع يكفيه هذا القدر الهائل من البشر.

فهذه الشخصية ترسم لنفسها برنامج الموت لا الحياة؛ وذلك عن طريق رسم (ثاناتوس/ THANATOS)، لا برسم (إيروس/ Eros).«ماذا يمكن لي أن افعل وأنا اكره أنوثتي وأنقم على طبيعتي وأتبرأ من جسدي ؟ !لا شيء سوى الإنكار.. التحدي.. المقاومة! سأنكر أنوثتي.. سأتحدى طبيعتي.. سأقاوم كل رغبات جسدي»[18]. إن هذا الاعتراف من الكاتبة/ البطلة/ الأنثى يصرح بممارسة الموت بكل إرادة. فعندما تقمع رغباتها، فهي تخنقها؛ وبالتالي فهي تمارس فعل الإماتة عن وعي. فأنوثة تكره أن يؤثر فيها الموت عن الحياة. وفي كل مشهد من مشاهد الافتتان بالموت في رواية (مذكرات طبيبة) يعقبه مشهد من مشاهد الافتتان بالحياة وممارسة الحب.

فهذه الحركة في طبيعتها تشبه حركة الرئتين بالشهيق والزفير، وهي التي تقوم على طرح الهواء السام العفن واستنشاق الأوكسجين إكسير الحياة. وهذه العملية المتعاقبة في سيرورتها حركة لا إرادية، ذلك بأن الإيقاع الأول هو «الافتتان بسر الموت في الحياة،.. أما الإيقاع الثاني، هو الافتتان بسر الحياة في الموت، فليست المعجزة أن يولد الموت من الحياة، بل أن تولد الحياة من

الموت...» [19] . هذا ما عبرت عنه بطلة (مذكرات طبيبة) في مشهد لا يموت من ذاكرتها أبدا؛ مشهد الأم التي تموت لحظة ولادة ابنها. إنها الحياة التي تنبت من رحم الموت والهلاك، وهذا ما جعلها تجعل حياتها تبدأ برحلة في الاتجاه المعاكس.

3)- تجليات الاتجاه النفسي في روايات نوال السعداوي: (امرأتان في امرأة) و(مذكرات طبيبة):

3-1)- رواية (امرأتان في امرأة):

نسعى إلى رصد أهم المصطلحات ذات الحمولة النفسية والتي استخدمها جورج طرابيشي في تحليل رواية (امرأتان في امرأة) التي درسها في كتابه (الأدب من الداخل). فانطلاقا من اختلاف البيئات المستقبلة للمصطلح، يضطر المترجم إلى تغيير مدلولات المفردات بما يلائم الأفق المعرفي؛ لأنه مختلف كُليا عن الأفق الغربي. وهنا تكون الترجمة كما يقال (الحسناء الخائنة). وعلى مر العصور لم تتجاوز الترجمة هذه المشكلة و لم تستطع استعادة الأصل المعرفي للمصطلحات رغم اختلاف الثقافات. ونجد جورج طرابيشي الذي ترجم أعمال فرويد وكارل ماركس، يحاول التخفيف من حدّة التغاير والاختلاف المعرفيين بين الأنظمة الثقافية؛ باختلاق مصطلحات دقيقة لتلك المصطلحات الأصلية المتصلة بمضمون مؤلفات أصحابها. وهذا ما نلاحظه في أغلب كتبه النقدية التي تتكرر باستمرار محاولا بذلك خلق فضاء أوسع لاستقبال المصطلح وتوظيفه في النص النقدي الغربي؛ ومن بين تلك المصطلحات نجد مصطلح (الأدب من الداخل)؛ وهو عنوان كتابه النقدي الذي بين أيدينا.

3-1-1)- الأدب من الداخل:

إن هذا المصطلح الذي وظفه جورج طرابيشي عنواناً لكتابه للوهلة الأولى يتبادر إلى لذهن بأنه يهدف إلى دراسة العلاقات والبنى الداخلية التي تربط العمل الواحد من شخصيات، لغة وتناسق بينها، لهذا نجد جورج طرابيشي ينطلق من منهج يفرضه عليه النص لسبر أغواره. وهذا ما صرح به في مقدمة كتابه (الأدب من الداخل)؛ حيث يقول: «وهذا ما رمينا إليه حين جمعنا هذه الدراسات تحت عنوان الأدب من الداخل» [20] . لذلك فإن الكشف عن خبايا النص، يجب أن

يأتي من داخل العمل الأدبي، وليس عن طريق منهج خارجي جاهز مسبقا. والجدير بالذكر أن هذا المصطلح (الأدب من الداخل) ينسجم مع ما جاء به (رينيه ويليك) و (أوستن وارين) في كتابهما (نظرية الأدب) [21]. لكن توظيف المؤلفين للمصطلح مختلف عن توظيف جورج طرابيشي للمصطلح ذاته. فقد صدر كتاب (نظرية الأدب) سنة 1948، في حين صدر كتاب جورج طرابيشي عام 1978؛ وهذا يدل على تأثر طرابيشي بكتاب كلٍّ مِنْ (رينيه ويليك) و(أوستن وارين) بالرغم من عدم الإشارة إلى ذلك في مصادره ومراجعه.

لكن هذا لا يلغي عملية التأثر؛ لأنها بدت بارزة بالرموز والإشارات الثقافية الغربية في جل كتبه وإن لم يعلن ذلك صراحة. ولتوضيح المصطلح أكثر، نعني بالدراسة النفسية للأدب من الداخل: دراسة علائق الشخصيات الفنية وبنياتها النفسية والداخلية، بعيداً عن علاقتها بالمبدع وبنيته النفسية والاجتماعية. لكن يبدو أن طرابيشي قد وقع في خلل اصطلاحي؛ ذلك بأنه ربط في كتابه (الأدب من الداخل) بين نفسية، والشخصيات الفنية وبين المحيط الخارجي والمبدع؛ تماما كما فعل مع ونوال السعداوي؛ حيث ربط بين بطلتها (هبة) وحبها للتفرّد والخروج عن القطيع وشخصية المؤلفة (نوال) التي تماهت مع بطلتها وانبهرت بها.

3-1-2)- التفرد والتفوق والانفصال:

من بين المصطلحات الحاضرة في هذا الكتاب، والتي تحمل مدلولات نفسية المصطلحات التي وصفها كل من (فرويد) و (أدلر) و(أوتورانك). وقد جئنا بهذا الترتيب؛ لأن كل مصطلح يقود إلى الآخر حتما. فالتفرد بحث عما يميز الشخصية من التشابه مع غيرها وإبعادها عنه. وكما يقول طرابيشي فالتفرد درب آلام ودرب شهادة. وقد يتحول هذا البحث عن التميّز إلى شذوذ ويختلف اختلاف بيِّناً عن النخبوية؛ لأن التفرد بأحد معانيه هو تعالٍ على القطيع، والتعالي هو المسلمة الأولى للنخبوية. وشتان بين التفرد والنخبوية، وبين ألا تكون كغيرك وأن تكون فوق غيرك. لكن المبالغة في طلب التفرد تقود إلى التفوق؛« لأن الباحث عن التفرد يخشى دونية التشابه مع المحيط؛

لذا قد يكون رد فعله متساميا»[22] . فهو بذلك يبحث عن الاختلاف والتميّز عن الآخرين، ولو بفعل مشين. وبذلك يكون التشابه دونية مؤدية إلى التفوق.

لكن المبالغة في طلب التفوق قد تؤدي إلى طريق مسدود، شأنها في ذلك شأن الدونية كما نجد ذلك عند (بهية) بطلة رواية (امرأتان في امرأة) ؛ وهي البطلة التي قال عنها الناقد: «التفرد لدى بهية ليس فقط في الانزواء، بل في القتل والانتحار»[23] . وهذا ما حصل بالفعل؛ لأن نهاية (بهية) تمثلت في أنها قتلت ودخلت السجن؛ ليحكم عليها بالإعدام، وهي غير نادمة على هذه الفعل (التفرد)، بل تعتبره تميزًا وانفراداً؛ بل وتفوقا على بقية القطيع (كما تسميهم). فالتفرد هو لجوء الفرد أحيانا إلى تمويه واقعه المرير بأوهام وخيالات لا أصل لها، وبالتالي فالتفرد، كما قلنا سابقا، مصدرٌ للألم «شأنه شأن الانفصال؛ لأن الوليد يستقبل حياته بالبكاء. ومن هنا يشتد البحث عن التفرد بالعودة إلى الرحم والالتحام بجسد الأم ومنها الأرض والكون»[24] .

3-2)- رواية مذكرات طبيبة:

وقد طوّر جورج طرابيشي بعض المصطلحات النفسية الجديدة، وأضافَها إلى ترسانة المصطلحات القديمة المعروفة لدى فرويد. ومن أمثلة ذلك ما نجده متعلقا بمصطلح (عقدة الخصاء) كما سماها فرويد، حيث فتحول بها الناقد إلى (وهم الخصاء). ومن هنا نجد أن مصطلحاته في جل كتبه النقدية تقريباً تتسم بكثير من بالدّقة المنهجية و الوضوح . وهذا راجع إلى أنه ترجم الكثير من أعمال فرويد. فهو العارف بأي بحث أو مقارنة تَخُصُّ دقة أي مصطلح نفسي في أصوله الفرويدية. ويبدو أنه من الصعب أن تفلح عمليات البحث عن تلك الفروقات بين توظيف المصطلح النقدي في مؤلفات طرابيشي ومؤلفات فرويد. فالناقد الذي يوظف المصطلح النقدي عن طريق الترجمة هو نفسه المترجم الذي نقل هذا الاتجاه النقدي إلى ميادين النقد العربي الحديث.

ومن أمثلة ذلك ، مصطلح (عقدة الخصاء) فهو نتاج فرويد. لكن المؤلف عوض المصطلح بمفهوم آخر هو (عقدة الخصاء المستوهم). وهذا نتاج نفسي/ اجتماعي، حيث تشعر المرأة بأنها ذكر ناقص، فهي محض استيهام متعين في جملة معيناته لا بغلبة منظومة القيم الذكورية في المجتمع

الأبوي[25] .ومن خلال تلك التسمية لعقدة (الخصاء المستوهم) يخلص إلى أن (عقدة الخصاء) تكون عند الذكر. أما (عقدة وهم الخصاء)، فهي وهم لدى الأنثى؛ لأن فرويد لم يشر إلى ذلك و لم يفرق بينهما. ومن هنا، نجد جورج طرابيشي يُفرق بين العقدتين: فعقدة الخصاء نتيجة لسادية الآخرين. أما العقدة الثانية، فهي نتاج المازوخية الذاتية ****.

عنى جورج طرابيشي بالتحليل النفسي للشخصيات الفنية من خلال تتبع عقدها ومكبوتاتها مستعينًا بأعلام المدرسة التحليلية الفرودية. وأول عقدة أشار إليها هي عقدة أوديب* لدى بطلات روايات نوال السعداوي وتحليل مراحل تطور تلك العقدة منذ الطفولة (طفولتهن). وهذا ما أثبته بالنسبة إلى شخصية (بهية شاهين) في رواية (امرأتان في امرأة)، حيث بدت آثار الأوديبية واضحة، عكس بطلة (مذكرات طبيبة)، إذ أنه لم يشر إلى إصابتها بهذه العقدة في هذا الكتاب. ولا يكتفي برصد عقدة أوديب فحسب، بل وجدناه يتعمق في أغوار الشخصيات الفنية؛ ليكتشف عقد النقص والدونية التي تلازم البطلة الأنثى في كل روايات نوال السعداوي، وذلك جرّاء المجتمع الذكوري المضطهد للأنثى.

فالبطلة تحلم بأن تكون صبيا في (مذكرات طبيبة) فرفضها لأنوثتها بيولوجيا، يجعلها تحس بالخزي والخصاء (وهم الخصاء): «كل ما كنت أعرفه في ذلك الوقت أني بنت كما أسمع، و لم يكن لكلمة بنت في نظري سوى معنى واحد؛ هو أني لست ولدًا.. لست مثل أخي»[26] . وهذا دليل على مقارنة الدونية بالأنثى دائما، والقوة بالرجل. فهذه (ماري بارنز) تُصرح وتوافق نوال السعداوي في ميلها لأن تكون صبيا ونبذها لأنوثتها الطبيعية ورغبتها في أن تكون صبيا لتحصل على كل ما لدى أخيها.. وتعترف بانها ما استطاعت أن تتحمل ظهور حيضها ونمو أثدائها .. لذلك تصرح بانها شعرت بخزي شديد،..لانها كانت تتمنى لو كانت صبيا .

فاضطهاد المجتمع الأبوي للأنثى يدفعها إلى تبني موقفٍ معادٍ اتُجاه الآخرين، وهو الموقف السادي أو المازوخي اتجاه ذاتها؛ فتتلذذ الشخصية بتعذيب نفسها وإيلامها. وقد طرح علماء النفس بالعلاقة بين السادية وحب الحياة، وبين المازوخية وحب الموت. وهذا هو « المحور الرئيس

للصراع في (مذكرات طبيبة)، السيكولوجيا ضد السيولوجيا فالقدر السسيولوجي لبطلة (مذكرات طبيبة) شاء لها أن تولد أنثى، لكن المصير السيكولوجي الذي اختارته لنفسها هو أن تثبت أنها ليست أنثى»[27] .و لم يتوان الدارس عن طرح قضية اللاشعور الجمعي في كتابه، ودوره في دراسة العلاقات بين الشخصيات الفنية من جهة، والمحيط الذي رُسم لها العيش فيه من جهة أخرى. وهنا يرجع جورج طرابيشي للمزج والاستعانة بالمنهج الاجتماعي؛ لدراسة البنية النفسية الاجتماعية للشخصيات الفنية، وأثر العلاقات الاجتماعية للمحيط الذي تعيش فيه تلك الشخصيات في زيادة حدّة العقد والمكبوتات والعصابات. وهنا يبدو جورج طرابيشي متأثرًا بنظرية علم النفس الجمعي لـــ (يونغ) تلميذ (فرويد)، وهذا ما يدفعنا للتطرق إلى مفهوم اللاشعور الجمعي عند (يونغ):« اللاشعور الجمعي في مفهوم (يونغ) هو مجموعة القيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية المنظمة للحياة الاجتماعية، وهي موجودة في الذاكرة الجمعية للمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه الفرد. كما أنها موجودة في اللاوعي الفردي فيمارس عليه سلطة الأنا الأعلى»[28] . ومعنى هذا أن رفض الأنثى لأنوثتها وإحساسها بالدونية نتاج إيديولوجي راسخ في اللاشعور الجمعي للمجتمع الذكوري، وبالتالي اكتسبتها المرأة باعتبارها فردًا من المجتمع؛ تُخَبِّئُ هذا الشعور بالدونية لكونها أنثى. وكل هذا جاءها نتيجة شعور وإحساس المجتمع الأبوي بدونية المرأة بداخله، وبذلك ورثت هذه الدونية والخزي؛ فأصبحت ترى نفسها وبقية النساء كأنهن من ضمن القطيع.

لقد خاض الناقد في هذه الدراسة تجربة التحليل النفسي للشخصيات الفنية وربطها بالبنية الجمعية للمحيط. أما من ناحية المضمون، فقد حافظ جورج طرابيشي في دراسته هذه على طريقة التماهي بين الشخصية الفنية ومبدعها، كما حصل مع نوال السعداوي وبطلتها في (مذكرات طبيبة) من خلال دراسة سيرتها الذاتية (التحليل النفسي الداخلي/الخارجي). كما لا نُغْفِلُ العناية الخاصة بتتبع عصابات وعقد ومكبوتات الشخصيات، بالإضافة إلى ذكرياتها وأحلامها وزلات لسانها. وكُلُّ هذا من خلال مفاتيح معينة (أقفال) لفك غموض الشخصيات الفنية (التحليل النفسي الداخلي).

خاتمة:

يتبين لنا مما سبق ذكره في هذه الدراسة التي تناول فيها جورج طرابيشي بالدرس والتحليل روايات نوال السعداوي باعتبارها تنتمي إلى الجنس المضطهد من قبل مجتمع أبوي ظالم وقاسي -كما تصرح هي بذلك - ، أنه الناقد الذي يغوص في أغوار الشخصية (شخصية المؤلفة ذاتها)؛ باعتبارها تكتب رواياتها في شكل سيرة ذاتية، وبالتالي توضيح رؤيتها للعالم. فهو يستخدم في هذه الدراسة أكثر من منهج لاكتشاف أغوار النص ,ودراسة شخصيات الرواية (امرأتان في امرأة)، ورواية (مذكرات طبيبة). فالمنهج الاجتماعي ضروري ومناسب لتوضيح المشكلات النفسية التي تعانيها الشخصيات الفنية، خاصة عن طريق الاهتمام بدراسة البنية الاجتماعية داخل النص الأدبي، وأثرها في نمو الأمراض والعقد النفسية، ومعاناة المرأة من المجتمع الذكوري وموقف المجتمع منها.

الهوامـــش

1) نوال السعداوي : امرأتان في امرأة. هيئة الكتاب (القاهرة) ,ط هيئة الكتاب (القاهرة) ,ط,1971

* – نوال السعداوي : ولدت في 27 أكتوبر 1932 لعائلة تقليدية و محافظة بقرية كفر طحلة إحدى قرى مركز بنها التابع لمحافظة القليوبية. كانت الطفلة الثانية من بين تسعة أطفال. ختنت في السادسة من عمرها. أصر والدها على تعليم جميع أولاده بما فيهم الإناث. واستمدت منه نوال احترام الذات ووجوب التعبير عن الرأي بحرية. درست نوال وتخرجت من كلية الطب جامعة القاهرة في ديسمبر عام 1955 وحصلت على بكالوريوس الطب والجراحة في مجال الأمراض الصدرية، وعملت كطبيبة بامتياز بالقصر العيني. تزوجت في العام نفسه من أحمد حلمي زميل دراستها في كلية الطب. لكن هذا الزواج لم يستمر لفترة طويلة، إذ انتهى بعد عامين. صدر لها أربعون كتابا أعيد نشرها وتمت ترجمتها لأكثر من عشرين لغة، وتدور كلها حول الربط بين تحرير المرأة والإنسان، وتحرير الوطن من جهة أخرى في نواحي ثقافية واجتماعية وسياسية. ومن أهم أعمالها: المرأة والجنس، ومذكرات طبيبة، وأوراق حياتي 2000، ومذكرات في سجن النساء، ورواية موت الرجل الوحيد على الأرض.. وللمزيد انظر ويكيبيديا

2) نوال السعداوي: مذكرات طبيبة دار الساقي ,بيروت ط1 ;1960.

3) جورج طرابيشي: أنثى ضد الأنوثة (دراسة في أدب نوال السعداوي على ضوء التحليل النفسي)، دار الطليعة، بيروت 1984، ط.1.

4) جورج طرابيشي: الأدب من الداخل، دار الطليعة، بيروت، ط1. الأولى، 1978، ص. 7.

5) المصدر نفسه، ص. 10

6) المصدر نفسه، ص. 11

7) المصدر نفسه، ص. 26

8) المصدر نفسه، ص. 22 .

**– عقدة أوديب: مفهوم أنشأه سيجموند فرويد واستوحاه من أسطورة أوديب الإغريقية، وهي عقدة نفسية تطلق على الذكر الذي يحب والدته ويتعلق بها ويغير عليها من أبيه فيكرهه، وهي المقابلة.

***– النكوص: regression وهو الارتداد إلى مرحلة بمبكرة في حياة الفرد، ويمثل إحدى الآليات الدفاعية التي يلجأ إليها الفرد ليتجنب ما يعانيه من صراع أو قلق جزئي أو كلي بالعودة إلى مرحلة أو نمط سابق في حياته. فإذا اصطدم الفرد بعائق يعوق إشباع دافع لديه و لم يستطع التغلب عليه، فإنه يتعرض للإحباط ينظر: الموسوعة الفلسفية، مجموعة من المؤلفين، رئيس التحرير معن زيادة . معهد الإنماء العربي.

9) فرويد سيغموند: مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي، ترجمة :جورج طرابيشي ,دار الطليعة ,بيروت ,ط,1982,2ص62بتصرف

10) المرجع نفسه، ص. 66

11) جورج طرابيشي: عقدة أوديب في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط. الأولى، 1982، ص. 5

12) أبو هيف عبد الله: مجلة أنفاس نت: الاتجاه النفسي في النقد الأدبي السوري، الأربعاء 28 أيار 2008 http://www.anfasse.org

13) سهام جبار: مجلة الروائي: التحليل النفسي والبنيوية التكوينية /نقد أنثى ضد الأنوثة لجورج طرابيشي http://www.alrowaee.com

14) جورج طرابيشي: أنثى ضد الأنوثة، ص. 64

15) المصدر نفسه، ص. 64.

16) نوال السعداوي: مذكرات طبيبة، ص. 14

17) المصدر نفسه، ص. 61

18) المصدر نفسه، ص. 20.

19) جورج طرابيشي: أنثى ضد الأنوثة، ص. 71

20) جورج طرابيشي: الأدب من الداخل، ص. 9

21) رينيه ويليك وأوستن وارين: نظرية الأدب، تعريب عادل سلامة، دار المريخ، السعودية، ط. 3/ 1992

22) جورج طرابيشي: الأدب من الداخل، ص. 25

23) المصدر نفسه، ص. 23

24) المصدر نفسه، ص. 29

25) جورج طرابيشي: أنثى ضد الأنوثة، ص. 45

**** المازوخية: هي اضطراب نفسي يتجسّد في التلذّذ بِالألم الواقع على الشخص نفسه؛ أيّ التلذذ بالاضطهاد عامةً. وعموماً فإن السادية والمازوخية يعتبران من الاضطرابات النفسية التي تستوجب العلاج .
السادية: هي اضطراب نفسي يتجسّد في التلذّذ بِإيقاع الألم على الطرف الآخر أو الشخص نفسه؛ أيّ التلذّذ بالتعذيب عامةً

26) نوال السعداوي: مذكرات طبيبة، ص. 5

27) المصدر نفسه، ص. 63

28) الموسوعة الفلسفية العربية: مجموعة من المؤلفين (رئيس التحرير: معن زيادة)، معهد الإنماء العربي، ط. 1، القسم الثاني،المجلد الثاني _المدارس والاتجاهات والتيارات , ص. 1489.